

الحج.. الاجتماع الرائع



يشهد البيت الحرام، ومكة المشرفة جموعاً بشريةً كبيرةً متلاحقة لا تنقطع، فهي محط الرجال وموضع الآمال وإن البيت ليموج بحركة الناس وازدحامهم في الطواف حول الكعبة، أو في السعي بين الصفا والمروة، أو في غير ذلك من شعائر الحج أو العمرة.

الكعبة حجر يتحوّل، في الوعي إلى معراج للروح، والبيت بيت للعبادة والتسليم والتعظيم، فيه الأمن والأمان وإليه شرع سبحانه الحج.

(إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى
لِّلْعَالَمِينَ * فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا
وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا) (آل عمران/ 96-97).

(وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمِّنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ
إِبْرَاهِيمَ مُصَلِّينَ وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ

لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (البقرة / 125).

(وَإِذْ يَوَّأُنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ) (الحج / 26).

(وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ * لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا أَمْرَ اللَّهِ وَالرَّسُولَ * لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلِيُتَوْفُوا نِعْمَتَهُمْ وَلِيَبْطِئُوهُ إِذْ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا بِرُكُوعٍ أَوْ إِحْتِسَابٍ * ذَلِكَ وَمَنْ يُعِظْكُمْ عَلَى إِحْسَابِ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ) (الحج / 27-30).

(جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْيَدِيَّةَ الْكِرَامَ فَيَذَرُهَا لِنَاسٍ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهُدْيَ وَالْقَلَائِدَ ذَلِكَ لِيَتَعَلَّمُوا أَنْ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنْ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) (المائدة / 97).

- ما نتعلمه من هذه الآيات الشريفة:

1- أن الرب سبحانه هو الذي دلَّ نبيه إبراهيم (ع) على مكان البيت، حين أمره بإنزال إسماعيل وأمه عنده، في هجرتهما القديمة. وكان آدم (ع) قد وضع من قبل، قواعد بيت الله بأمر من الله عز وجل.

استأهل بيت الله عز وجل لما له من دلالات إيمانية عميقة، ورموز روحية شاخصة، ومن أثر في توحيد وجهة الموحدين، حرمة خاصة، واحتراماً يناسب وظيفته وبلائم نهمته؛ (جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْيَدِيَّةَ الْكِرَامَ فَيَذَرُهَا لِنَاسٍ).

2- شرع إبراهيم وإسماعيل برفع القواعد والأسس القديمة وإعلانها، حتى استوت بنية حجرية مكتملة.

وكان الرجلان - وهما يزاويان العمل البنائي العظيم - يشعران بضآلتها إزاء عظمة الله تعالى، ويتطامنان رهبةً ورغبةً وخشوعاً، ويمتلئان مناجاةً ودعاةً: رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ.

3- الكعبة أساس راسخ لعقيدة التوحيد، ومركز إشعاع لهذه العقيدة، ومناجاة من أشراك الوثنية والضلالة والجهالة، ففي علاقة الموحّد بالكعبة تتجلّى مظاهر وحدانية الله في الطاعة والعبادة، وحدة في الغاية، ووحدة في الطريق إلى الغاية: (وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا).

4- والكعبة، بهذا المعنى الإيماني العظيم أوّل بنية شهدتها البشرية، أنشئت لهذا الهدف، وأوّل بيت وُضع للناس من أجل العبادة، فقصدُ زيارته والحج إليه تزكية للنفس، وتطهير للقلب، وهو درب يهdy إلى الصراط المستقيم، ويغترف المرء من حجّه وقصد زيارته عظيمَ الأجر والثواب: (وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَحَابَّةً لِّلنَّاسِ).

سأل رجل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) عن البيت الحرام: - أهو أوّل بيت؟ قال: - "لا، قد كان قبله بيوت، ولكنه أوّل بيت وضع للناس مباركاً، فيه الهدى والرحمة والبركة". وقال (ع) أيضاً: "كانت البيوت قبله، ولكنه كان أوّل بيت وضع لعبادة الله".

5- ومن ملامح الاقتداء بإبراهيم (ع) والالتزام به وهو يخطو أمامنا في الطريق إلى الله، أن أمرنا ربّنا سبحانه أن نتخذ من مقام خليله إبراهيم - إذ كان يبني الكعبة - مصلّى لنا، نتوجّه فيه بالطاعة والذكر والشكر، فنشعر بجهود الخليل (ع) إذ كان يتعب وينصب، فنشكر الله أن هبّأ لنا رجلاً نأتم به كإبراهيم. وربّما أراد ربّنا تبارك وتعالى أن يزيد من منزلة إبراهيم عنده ومن ثوابه لديه، بما يناله من الأجر في كلّ صلاة يصلّيها مصلّ في مقام إبراهيم. وفي الحديث عن الرسول الكريم (ص) وهو يقرّر هذه الفكرة العامّة: "مَنْ سَنَّ سَنَةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ".

6- واستأهل بيت الله عزّ وجلّ لما له من دلالات إيمانية عميقة، ورموز روحية شاخصه، ومن أثر في توحيد وجهة الموحدين، حرمةً خاصةً، واحتراماً يناسب وظيفته ويلائم مهمته: (جَعَلْنَا اللَّعْلَةَ الْكَعْبَةَ عَيْبَةً لِّلْمُشْرِكِينَ وَالْحَرَامَ لِقِيَامَتِنَا لِّلنَّاسِ).

فالبیت له فی النفوس تعظیم وقداسة، وجعل الله سبحانه من الناحية الزمنية أشهراً حُرماً، ووصل بين حرمة المكان وحرمة الزمان بصلة وثيقة، كالحج في شهر ذي الحجة الحرام، وشرع قضايا تناسب الحرمة كالهدي والفلاذ.

وتتعدد مصاديق احترام البيت الحرام وتعظيمه فيما نفعله من التوجه في الصلوات شطر الكعبة المشرفة، وفيما نصنعه من توجيه الذبائح وتوجيه الأموات وجهة البيت الحرام، وكذلك فيما نتجذب فيه استقبال القبلة واستديارها من سيئ حالاتنا، وفيما يחדش توقيرنا وتكریمنا لهذه البقعة المطهرة الكريمة.

7- ويرتبط بتعظيم البيت وتوقيره واحترامه ما يشيع فيه من أمن تشريعي ومن سلامة الإنسان فيه وطمانينته على دمه وعرضه وماله؛ (وَإِذْ جَعَلْنَا الذِّبْيَةَ مَذَابِحَ لِلنَّاسِ وَأَمْذًا) (البقرة/ 125)، (إِنَّ أَوْلَىٰ بِالذِّبْيَةِ وَضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَيْكَةِ مَبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ * فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا) (آل عمران/ 96-97).

إن المرء ليشعر - وهو يعيش حالة الاحترام وحالة الأمن في البيت الحرام - بمعان من الجلال ومن الطمأنينة الشاملة، ويحس أن بيت الله تبارك وتعالى ملاذ الطريد، وملجأ الشريد، وحصن المضطهد، وأمان الخائف، وهناءة المرعوب، فهنا في بيت الله ينبع السلام الدائم، وهنا في بيت الله يتحدّر الجلال الدائم.

8- وإذ يفرغ إبراهيم (ع) هو وابنه إسماعيل من إقامة الكعبة الشريفة، يبدأ التكليف الإلهي للناس أن يقصدوا بيت الله ويشدوا الرحال إلى حجته وزيارته، فيسمع صوت النبي إبراهيم (ع) مؤذناً في الناس بفريضة الحج؛ (وَإِذْ نُنُورُ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ)، (وَلِلَّهِ عِلْمُ النَّاسِ حِجُّ الذِّبْيَةِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا).

إن الله عز وجل إله البشرية ورب البشرية، وقد انبثق الناس جميعاً من يد القدرة الإلهية الخالقة العظيمة؛ من أجل أن يبدؤا رحلة الحياة في السير نحو الله تعالى، وفي التوجه نحو المصدر الذي انبثقوا منه، بنمط خاص من التعبد، وطرار فريد من الطاعة والتسليم؛ (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ * مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ

يُطْعِمُونَ * إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ) (الذاريات/ 56-58).
وهاهو ذات صوت النبي إبراهيم (ع) ينادي بالناس كافة بالحجّ، فالحجّ مطهر راقٍ من مظاهر الطاعة،
والبشر ما خُلِقوا إلا ليخطوا في طريق الطاعة.

9- وآية الأذان بالحج: (وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ
ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ). تدلّ على أنّ أذان الرسول في الناس بالحج سيُقبل
بالإجابة، وأنّ صوته الذي يجهر بالدعوة إلى قصد البيت وزيارته سيجد آذاناً صاغية وقلوباً واعية،
تتخطّى المسافات، وتتجاوز المفاوز والعقبات والسبل البعيدة الشائكة، لتلبّي دعوة الله التي جرت على
لسان رسوله الكريم. فالقادرون من الموحّدين - كانوا وما يزالون وسيظلون - يسمعون أذان الخليل
ونداءه بالحجّ، ويلبّون هذا النداء ويؤمّون وجوههم شطر المسجد الحرام، ماشين على أقدامهم، رغم
بُعد الشقة، ورغم الفراسخ والأميال، أو يقصدون البيت راكبين نياقاً قد أرهقها السفر، وأضناها
المسير، حتى وصلت إلى مكّة متعبة مكدودة مهزولة ضامرة.

وجموع الحجيج هذه من القبائل والعشائر والأفراد المنقطعين تتطالع كلّها إلى مكّة المشرفة،
تلبّي النداء الشريف، وتجيب بنبرة تنكسر، وترقّ، وتسمو، وتشفّ عمّا بها من تخشّع، وهيبة،
وسكينة، وعبودية نقية صافية: "لبّيك اللهم لبّيك، لبّيك لا شريك لك لبّيك. إنّ الحمد والنعمة
لك والمُلْك. لا شريك لك لبّيك".

10- ويشهد البيت الحرام، ومكّة المشرفة جموعاً بشريةً كبيرةً متلاحقة لا تنقطع، فهي محط
الرجال وموضع الآمال، ولا تكاد تخلو كعبة الله جلّ وعلا لحظة من قاصد للحجّ أو للزيارة، ومن أجل هذه
الكثافة البشرية الهائلة التي تتجمّع في أرض مكّة ومن أجل هذه الحركة العبادية الدائمة، كان
لمكّة اسم آخر، ينبثق من هذا المعنى هو "بكّة": (إِنَّ أَوْلَىٰ لَٰئِبَتٍ وَأُولَىٰ لَٰئِبَتٍ وَأُولَىٰ لَٰئِبَتٍ لَٰئِبَتٍ لَٰئِبَتٍ
بِرَبِّكَ كَلِمَةً مُّبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ).

يقول الإمام الصادق (ع) وهو يفسّر لفظة "بكّة": "سُمّيت بكّة؛ لأنّ الناس يبكّون فيها، أن
يزدحمون". وتشهد بصدق ذلك حقائق التاريخ، كما يشهد الواقع الحي الذي نعيشه كلّ عام في موسم الحجّ
ومواسم الاعتمار.

إنّ في البيت لآيات وعلامات، وأنّها لبّيات في الوقت نفسه، توصل إلى الله من أقرب طريق صادق،
وتُفضي إلى الحق من أيسر وجهة صحيحة: (فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ

11- ومن أجل تحقق النقاء الكامل، والنظافة الشاملة، أمر الله سبحانه نبيه بالتطهير: تطهير البيت من الأقدار المادية والأنجاس المعنوية، ليتسنى لمواكب الحجج التي لا تنقطع أن تتقدم إلى بارئها بمراسم العبودية ومظاهر التوحيد والتأليه بقصد القرب منه والزلفى لديه: (وَعَاهِدُونَآ إِلآى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ).

(وَأَذِّنْ لِلْعَالَمِينَ أَن ذُرِّعُوا لَهُمْ السُّبُلَ إِلَى بَيْتِ اللَّهِ الَّذِي هَدَى لِنُوحٍ إِذْ أَوْسَىٰ أَهْلَهُ أَن سَبِّحُوا لَهُ مِمَّا رَزَقَهُمْ وَخَلِّعُوا لَهُمْ جُودِيًّا) (سجدة: 27).
 (وَأَذِّنْ لِلْعَالَمِينَ أَن ذُرِّعُوا لَهُمْ السُّبُلَ إِلَى بَيْتِ اللَّهِ الَّذِي هَدَى لِنُوحٍ إِذْ أَوْسَىٰ أَهْلَهُ أَن سَبِّحُوا لَهُ مِمَّا رَزَقَهُمْ وَخَلِّعُوا لَهُمْ جُودِيًّا) (سجدة: 27).
 بجعله بيتاً للتوحيد الصافي من لوثة الوثنية وأرجاس الجاهلية، بأن يعلم إبراهيم (ع) الناس الطريق إلى العبودية الطاهرة، فالعبادة فيه عبادة خالصة لوجه الله لا تشويها شائبة شرك أو دنس أو انحراف، كما حدث فيما بعد أيام الجاهلية الأولى. وتطهير البيت كذلك تطهيره من كل ما لا يليق بحرمة هذا البيت الشريف وقداسته.

12- بناء الكعبة، ومظاهر العبادة الخاصة التي تُزاوَل فيها، والمناسك التي تأتيها الألوَف بعد الألوَف من الناس، والملايين بعد الملايين، والمعاني والأسرار المتصلة بالحج والبيت الشريف وبمكة عامة، كل ذلك علامات دالة وإشارات معبرة، توصل - في نهاية المطاف، أو في أوّل المطاف ونهايته - إلى الله جلّ وعلا، وتحكي جليل مقامه سبحانه وعظيم سلطانه، إنَّها آيات وعلامات تكون لذوي البصائر بمثابة البوابات إلى الصراط؛ موقف إبراهيم (ع)، حرم آمن يأمن مَن دخله، مناسك وعبادات على نمط فريد، الاستمرار على مدى الليالي والأيام، الألوَف عقب الألوَف، والملايين بعد الملايين، ما يحسّه المرء من هيمنة روحية مدهشة. أي شيء من هذه الأمور الرائعة لا يكون علامة تدل على الله سبحانه؟! وأي شيء من هذه المظاهر لا تذكر بجلال الله وتفردّه بالألوهية والربوبية؟!.

إنَّ في البيت لآيات وعلامات، وإنَّها لبيِّنَات في الوقت نفسه، توصل إلى الله من أقرب طريق صادق، وتُفضي إلى الحق من أيسر وجهة صحيحة: (فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن مِّنْهُ دَخَلَهُ كَانِ آمِنًا). ▶